منوعات

MEDIA

أخبار

كشفت أستراليا، أمس الأربعاء، أن حادثة واحدة من كل عشر حوادث أمن سيبراني وقعت العام الماضي شملت البنية التحتية الحيوية، حيث استهدفت جهات فاعلة ترعاها الدولة حكومة البلاد والبنية التحتية والشركات باستخدام أساليب متطورة.

رفعت وكالة الأنباء الهندية «إيه أن آي» دعوى قضائية على «أوبن إيه آي» في محكمة نيودلهي، حيث اتهمت مطورة برنامج «تشات جي بي تي» باستخدام محتواها المنشور، من دون إذن للمساعدة في تدريب روبوت الدردشة العامل بالذكاء الاصطناعي.

انطلق صاروخ «ستارشيب» العملاق التابع لـ«سبيس إكس»، الثلاثاء، من ولاية تكساس، تحت أنظار رئيس الشركة إيلون ماسك والرئيس المنتخب دونالد ترامب، في رحلة تجريبية جديدة فشل خلالها في العودة إلى منصته، وهبط بدلاً من ذلك في البحر.

ستخصص شركة الترفيه البريطانية ميرلين إنترتينمنت، التي تدير عدداً كبيراً من المتنزهات الترفيهية في العالم، مساحات مستوحاة من لعبة الفيديو «ماينكرافت» الأكثر مبيعاً على الإطلاق، وسيكون أولها في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

سُجل تزايد ملحوظ في حجم شكاوى المصريين خلال الفترة الأخيرة من المكالمات غير المرغوب فيها التي تصلهم من شركات إعلانات حصلت على بياناتهم الشخصية من دون موافقتهم

خصوصيات المصريين بين أيدي شركات الإعلانات

الإسكندرية ـ **أحمد عبده**

أصبح التسويق العشوائي من خلال المكالمات الترويجية مشكلة تؤرق ملايين المواطنين في مصر الذين يعبرون عن استيائهم من هذه المكالمات التي تتسلل إلى حياتهم اليومية بشكل مزعج ومتكرر، دفعت الكثيرين إلى المطالبة بضرورة وجود تشريع للحد من الظاهرة التي أصبحت في تزايد مطرد. وتتجلى الأزمة التي انتشرت في الآونة الأخيرة في ظل الاتهامات بوجود ممارسات غير قانونية من قبل شركات التسويق تتمثل في بيع أرقام هواتف المواطنين من دون علمهم أو سند قانوني، ما دفع أيضاً جهات كثيرة إلى المطالبة بفرض رقابة صارمة على هذه الشركات التي تنتهك خصوصيات المواطنين. وأصدر الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات في مصر بياناً يندد بهذه الظاهرة، بعد أن رصد خلال الفترة الماضية تزايداً ملحوظاً في حجم شكاوى المستخدمين من استقبال مثل هذه المكالمات. وأكد أنه يتخذ إجراءات قانونية صارمة ضد الشركات المخالفة التي تستخدم أرقام هواتف المواطنين من دون إذن مسبق لإجراء مكالمات ترويجية. وشدد على ضرورة احترام الخصوصية واتخاذ إجراءات لحماية خصوصية مستخدمي خدمات الاتصالات والقضاء على ظاهرة المكالمات المزعجة التي تصلهم عبر الاتصال المباشر بالهاتف الشخصي من قبل شركات التسويق. وأعرب العديد من المواطنين عن استيائهم من استقبال مكالمات بصورة مستمرة لتقديم عروض وإعلانات لترويج منتجات أو مشاريع خلال أوقات الراحة أو في أثناء العمل، ما يثير تساؤلات حول كيفية حصول هذه الشركات على أرقام هواتفهم من دون علمهم. إيمان عادل ربة منزل، وتقول إن مثل هذه المكالمات تزعجها كثيراً، خصوصاً أنها ترد إليها على هاتفها من دون موافقتها، ما يشكل انتهاكاً لخصوصيتها وخصوصية أسرتها. وتتفق معها سارة مصطفى، وهي طالبة جامعية، إذ ترى أن المكالمات الترويجية أصبحت عبئاً على الجميع، وتضيف: «أفكر في تغيير رقم هاتفي بسبب كثرة المكالمات المزعجة، وأشعر أن هذه الشركات لا تحترم رغبات الناس، وأنهم فقط يهتمون بزيادة أرباحهم بغض النظر عن تأثير ذلك على حياتنا اليومية». يعبر كارم محمود (صاحب شركة خاصة) أيضاً عن انزعاجه، ويقول: «أصبحت المكالمات الترويجية مصدر إزعاج كبير لي، إذ تصلني بشكل مستمر، لعرض منتجات ومشروعات مستفزه لعقارات وأراضٍ وغيرها. أشعر أن حياتي لم تعد خاصة، وأن أرقامي متاحة أو تُباع بسهولة، وأعتقد أنه يجب تشديد العقوبات على هذه الشركات؛ لأن ما تفعله انتهاك لخصوصيتنا». ويشير إلى أن المكالمات غير المرغوب فيها قد تؤدي إلى آثار نفسية سلبية، حيث يشعر البعض بالقلق أو الإزعاج، خاصة إذا كانت هذه المكالمات تتكرر يومياً وخلال أوقات غير مناسبة.

في هذا السياق، يوضح خبير تكنولوجيا المعلومات المهندس أحمد عليوة، لـ«العربي الجديد»، أن بيع أرقام الهواتف والمعلومات الشخصية وانتهاك خصوصية المواطنين أصبح تجارة غير أخلاقية تؤثر سلباً على حياة المصريين اليومية، إذ يتعرض العديد من المواطنين لضغوط نفسية؛ بسبب المكالمات غير المرغوب فيها التي تقتحم حياتهم في أي وقت. ويشير إلى أن مثل هذه الانتهاكات تؤدي إلى تآكل الثقة بين المواطنين والشركات، وكذلك بين المواطنين والمؤسسات الحكومية التي من المفترض أن تحمي بياناتهم الشخصية. ويؤكد أن بيع أرقام الهواتف بات سوقاً غير شرعي يدرّ أرباحاً ضخمة على أصحاب الشركات الذين يتاجرون بهذه البيانات، إذ إن العوائد المالية لهذا السوق تأتي من شركات الإعلانات التي تبحث عن طرق للوصول إلى الجمهور المستهدف بسهولة، ولكن هذا الأسلوب يعرض سمعة الشركات للخطر، ويقوض ثقة المواطن في التعامل معها.

> القانون يحظر بيع البيانات لكنه يعاني ثغرات عند التطبيق

ومن الجانب القانوني، يلفت المحامي محمد علي والمتخصص في قضايا المعلومات وجرائم الإنترنت أن القانون المصري يحتوي على عدد من المواد التي تحظر بيع البيانات الشخصية أو استخدامها من دون إذن، إلا أن التطبيق العملي لهذه القوانين لا تزال تعتريه ثغرات. ويؤكد أن التطورات التكنولوجية الحديثة ساهمت في زيادة التحديات التي تواجه الحق في حماية الحياة الخاصة للأفراد، مشيراً إلى أن الشركات التي تنتهك هذه الضوابط القانونية تستغل بعض الثغرات لبيع الأرقام من دون خوف من المحاسبة، مما يجعل من الضروري تشديد العقوبات لتصبح رادعة بشكل أكبر للشركات المخالفة ومحاسبة المسؤولين عن تسريب بيانات العملاء. ويوضح قائلاً إن «المواطن المتضرر لديه حق تقديم شكاوى للجهاز القومي لتنظيم الاتصالات، ولكنّ كثيرين يشعرون بعدم جدوى الشكوى بسبب قلة الإجراءات الصارمة المتخذة بحق الشركات المخالفة»، لافتاً إلى أهمية نشر توعية المواطنين بحقوقهم وحثهم على اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة هذه الانتهاكات.

ويعلق خبير التسويق الإلكتروني، هشام كمال، بالقول إن التسويق باستخدام الأرقام الهاتفية يجب أن يتم وفق ضوابط واضحة تحترم خصوصية العملاء، مؤكداً أن المسؤولية تقع على عاتق الشركات في تقديم خدماتها بطريقة قانونية وأخلاقية. ويرى أن استخدام الأرقام الهاتفية بطرق عشوائية ظاهرة سلبية وليست له عوائد إيجابية على الشركات ولا تضمن إبرام أي تعاقدات، بل يمكن أن يسهم في نفور العملاء وفقدانهم، الأمر الذي دفع الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات للتعاطي مع شكاوى العديد من المواطنين باتخاذ عدة إجراءات للتصدي لهذه الظاهرة، بما في ذلك تفعيل قوانين حماية البيانات الشخصية. ويضيف: «على الرغم من أن هذه القوانين تهدف إلى حماية خصوصية المواطنين، فإن بعض الشركات تستغل ثغرات قانونية وتنفذ عملياتها من دون قيود واضحة، مما يدفع المواطنين إلى المطالبة بالتصدي لها بتعزيز الرقابة وتطوير آليات أكثر فعالية لحماية بياناتهم». ويشرح عن الطرق «الملتوية» التي تستخدمها الشركات للحصول على أرقام المواطنين، سواء من خلال شراء قواعد بيانات غير مشروعة أو عبر جمع المعلومات الشخصية من خلال تطبيقات ومواقع إلكترونية لا تلتزم بالمعايير الأمنية، موضحاً أن بعض الشركات تعتمد على وسائل للتحايل على الضوابط التنظيمية التي وضعها الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات، ومؤكداً ضرورة تطبيق العقوبات بصرامة على المخالفين.

بدوره أصدر الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات القواعد التنظيمية الخاصة باستخدام خطوط المحمول في إجراء المكالمات الترويجية والتجارية، بعد أن رصد تزايداً ملحوظاً في حجم شكاوى المستخدمين من استقبال مثل هذه المكالمات. وقال رئيس قطاع التفاعل المجتمعي في الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات محمد إبراهيم، بشأن التعامل مع شكاوى المواطنين بخصوص مكالمات التسويق العقاري المزعجة: «رصدنا تزايداً ملحوظاً في المكالمات الترويجية المزعجة للمواطنين، وقمنا بتوجيه هذه الشركات بتغيير أرقامها في شركات المحمول حتى تظهر للمواطن أنها مكالمة ترويجية، وأرسلنا تنبيهات لكافة شركات التسويق العقاري بهذا الأمر، ونصوص قانون العقوبات ستكون في انتظار شركات التسويق المخالفة». وأضاف إبراهيم، في تصريحات لمواقع إخبارية محلية: «سنلزم شركات التسويق العقاري بتنبيه مسبق وكلمة مكالمة ترويجية أعلى الاتصال الوارد، وطلبنا من شركات المحمول القيام بالتحديثات الفنية المطلوبة لتنظيم المكالمة، وأعطينا هذه الشركات مهلة للقيام بهذه التغييرات وإلا فسيقوم الجهاز باتخاذ الإجراءات القانونية تجاه هذا الرقم».

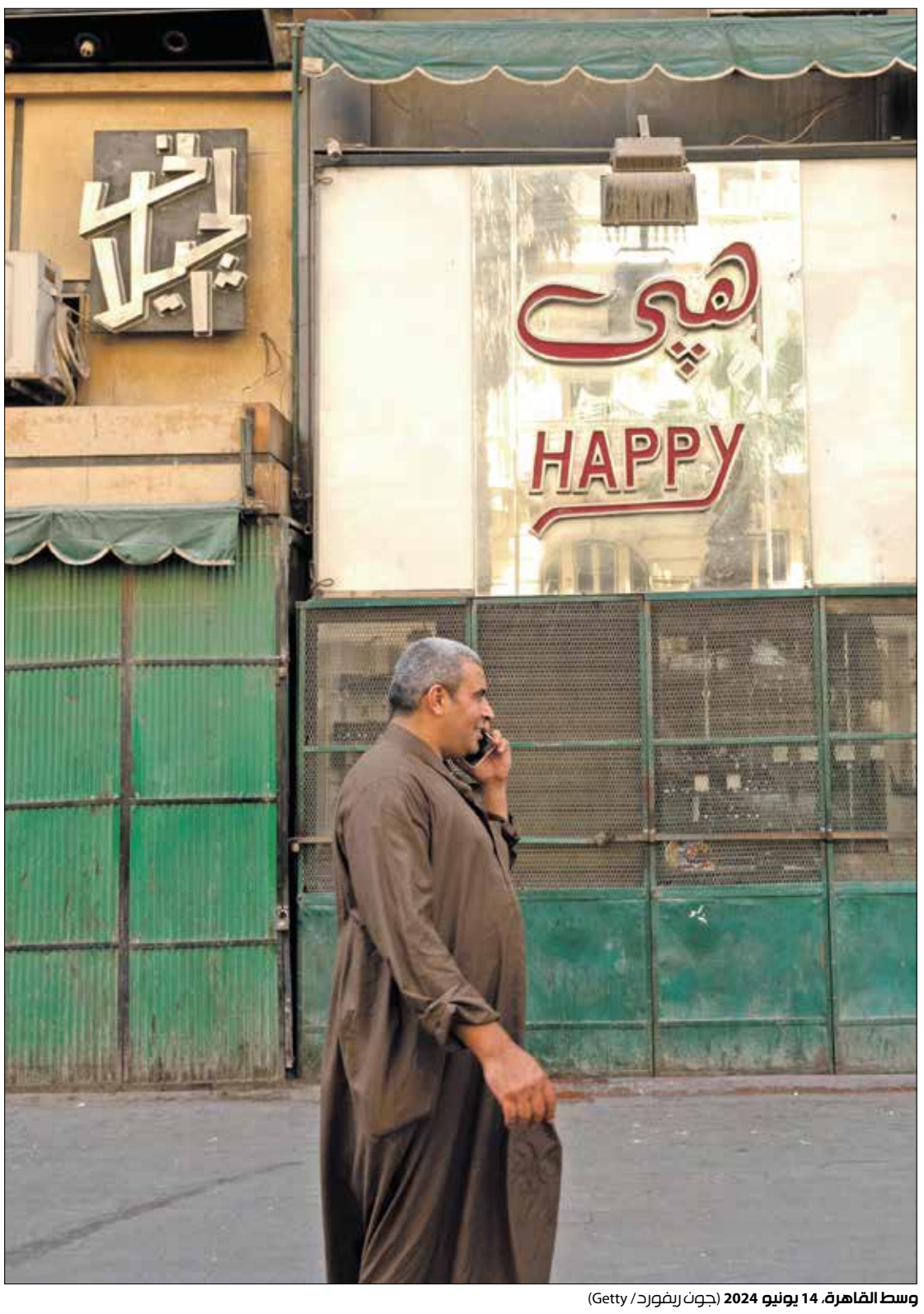

وسط القاهرة، 14 يونيو 2024 (جون ريفورد/ Getty)

الشق القانوني

هذه الأفعال مجرّمة قانوناً طبقاً لأحكام المادة 76 من القانون رقم 10 لسنة 2003 بشأن تنظيم الاتصالات وأحكام المادة 25 من القانون رقم 175 لسنة 2018 بشأن مكافحة جرائم تقنية المعلومات، والمُعاقَب عليهما بالحبس والغرامة. تنص المادة 76 على ما يلي: «مع عدم الإخلال بالحق في التعويض المناسب، يعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن 500 جنيه ولا تجاوز 20 ألف جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من: 1. استخدم أو ساعد على استخدام وسائل غير مشروعة لإجراء اتصالات. 2. تعمد إزعاج أو مضايقة غيره بإساءة استعمال أجهزة الاتصالات». أما المادة 25 من القانون رقم 175 لسنة 2018 بشأن مكافحة جرائم تقنية المعلومات فتنص على أنه «يُعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر، وبغرامة لا تقل عن 50 ألف جنيه ولا تجاوز مائة ألف جنيه، أو بإحدى هاتين العقوبتين، كل من اعتدى على أي من المبادئ أو القيم الأسرية في المجتمع المصري، أو انتهك حرمة الحياة الخاصة، أو أرسل بكثافة العديد من الرسائل الإلكترونية لشخص معين من دون موافقته، أو منح بيانات إلى نظام أو موقع إلكتروني لترويج السلع أو الخدمات من دون موافقته، أو بالقيام بالنشر عن طريق الشبكة المعلوماتية أو بإحدى وسائل تقنية المعلومات، لمعلومات أو أخبار أو صور وما في حكمها، تنتهك خصوصية أي شخص من دون رضاه، سواء كانت المعلومات المنشورة صحيحة أو غير صحيحة». وبموجب ذلك، كان الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات قد أعلن، في أكتوبر/تشرين الأول الماضي، عن البدء في اتخاذ كافة الإجراءات القانونية اللازمة ضد شركة ماونتن فيو وإحالتها للنيابة لقيامها بإجراء المكالمات الترويجية بالمخالفة لأحكام القانون والإجراءات التنظيمية.

فيروز في التسعين

موعد موجّل مع جبل الغيم الأزرق

من قال إنها لا تضحك؟

تبلغ فيروز اليوم التسعين من عمرها. عقود صنعت خلالها هوية خاصة للأغنية اللبنانية، فبات اسمها ملاصقاً لاسم لبنان وموسيقاه. في عيدها يقال الكثير عن سيرتها، عن سبعين عاماً قضتها في الغناء والمسرح، عن الثلاثي الذي شكّلته مع زوجها عاصي وشقيقه منصور الرحباني. عن نجوميتها التي لم يصل إليها فنان لبناني قبلها، عن انسحابها من الحياة العامة منذ سنوات، وعن إرثها الموسيقي الذي طبع مسيرة عشرات الفنانين في لبنان والعالم العربي. لكن في ما يلي تحية صغيرة لفيروز في عيدها التسعين

فيروز في عرض فرقة السيغال، بيروت 1973 (فارس يواكيم)

فارس يواكيم

لستُ خبيراً موسيقياً، لكنني من عشاق صوت فيروز وأغانيها. ولستُ من الفضوليين الذين يهتمون بحياة المشاهير الخاصة، لكنني مغرمٌ بإبداعها العام. ولم أجرِ معها مقابلة خلال عملي صحافياً محترفاً، لكنني كتبت عنها وعن مسرحياتها وأغانيها في مقالاتي النقدية، وكانت مقالتي الثانية في ملحق «النهار» عن فيلم «بياع الخواتم»، كانت لقاءاتي شخصياً بها قليلة وقصيرة، لكنني عرفت الكثير عنها من الدائرة المحيطة بها، من عاصي ومنصور والياس رحباني إلى نصري شمس الدين وجوزف عازار وفيلمون وهبي وصولاً إلى إيلي شويري وملحم بركات وسواهم.

في مصر، حيث وُلدتُ ونشأت في الإسكندرية، لم تكن فيروز في الخمسينيات من الأسماء الشهيرة في دنيا الغناء، برغم زيارتها إلى القاهرة لتمضية شهر العسل مع زوجها عاصي سنة 1955، وبرغم قدومها مجدداً إليها بعد فترة وجيزة لتسجيل مجموعة من أغانيها التي نظمها ولحنها الأخوان رحباني لحساب إذاعة «صوت العرب». لكنني في عائلتي اللبنانية كنت أعرفها وأسمع أغانيها. كان أبي يحرص على اقتناء أسطوانات أغانيها حين نزور لبنان في العطلة الصيفية. هكذا بدأتُ أصغي إلى الأغاني الفيروزية الرحبانية واستمتع بهذا اللون الغنائي المختلف: الأغنية القصيرة، ذات المواضيع المتنوعة والصياغة الشعرية الجميلة واللحن الرشيق. وما لبث الاهتمام أن تحول إلى إدمان، بدأ خصوصاً في مطلع الستينيات مع أسطوانتين: الأولى بها تسجيل حفلة معرض دمشق سنة 1960، والثانية مغناة «عودة العسكر». وكان الشوام المقيمون في مصر يرددون بعض أغاني الأسطوانتين في حفلات الجاليات، خصوصاً «شتي يا دني» و«هلّي عالريح يا رايتنا».

في سنة 1966 كنت طالباً في السنة الدراسية النهائية في المعهد العالي للسينما بالقاهرة، وكان محمود أمين العالم أستاذنا في مادة النقد الأدبي والفني. كان عائداً من زيارة إلى بيروت، ونبّهني إلى قراءة العدد القادم من مجلة «المصور»، كانت مقالته ملتهبة، بها عتب شديد على الإذاعة المصرية لتقصيرها في بث أغاني فيروز إلى حدود تكاد تلامس المنع، وأبدى استغرابه الشديد من إهمال بث «القدس العتيقة» والأغاني التي تتناول موضوع الحب في أجمل صوره، وفي مختلف حالاته، فضلاً عن أغاني الوطن والأرض والفلاحين والطلاب والربيع ومواسم الحصاد، ووجّه نداء إلى الرئيس جمال عبد الناصر يناشده إصدار الأمر بالإفراج عن أغاني فيروز الرائعة.

حصل التجاوب الرسمي، ووجهت وزارة الثقافة المصرية دعوة رسمية إلى فيروز والأخوين رحباني لزيارة القاهرة. كانت الحفاوة بالغة، والاهتمام الإعلامي شاملاً، وأخذت موجات الأثير تحمل صوتها شادياً إلى مسامع الناس، ورافقها ترحيب شعبي بالنجمة الساحرة وأغانيها. استقبلتها في التلفزيون المذيعة الرقيقة المتألقة سلوى حجازي في برنامج أعدّه أنيس منصور بحضور جمهور ملأ الاستديو، وافتتحت اللقاء بترحيب حار «يسعدنا أن نلتقي في هذه الحلقة الأولى من برنامج (أهلاً وسهلاً) بصاحبة الصوت الشفاف الرقيق الملائكي: فيروز». بدأت الحلقة بسؤال عن خجل فيروز وتجنّبها المقابلات الصحافية، فلم تُخفِ النجمة شعورها بالخجل، لكنها أضافت إليه مسألة تهيُّبها، خصوصاً لدى لقاء الجمهور، لأنها تحرص على الإتقان وعلى أن تبدو في أبهى صورة. وما صرّحت به فيروز هو في الواقع ميزة تلازم الكبار في الأدب والفن: بعد محاورة المذيعة المطوّلة أعطي الميكروفون للجمهور ليطرح أسئلته. كان بين السائلين طالب لبناني يدرس في القاهرة سألها: «في أغنية (خايف أقول اللي ف قلبي) غنّى عبد الوهاب (أنا زارني طيفك في منامي) وأنت غنيتها (أنا زارني طيفك بمنامي). ليش؟». ضحكت فيروز ضحكة خجولة، وألقت على السائل نظرة مهذبة أرفقتها بالجواب «ما بعرف». فضحك الجمهور. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها فيروز تضحك وتُضحِك الحضور.

من قال إن فيروز لا تضحك؟ ولماذا هي تؤثر الصمت على الثرثرة؟ ولماذا هي شديدة الوقار؟ أدوارها في المسرحيات معظمها جدية، وهي ليست ممثلة هزلية. ليست «بترا» ولا «غربة» في «جبال الصوان» ولا «عطر الليل» في «أيام فخر الدين» وسواها من الشخصيات الكوميدية، لكن في مختلف مسرحياتها، حين كان المشهد يحتمل النكتة، كانت فيروز تلقيها باحتراف.

أما الصمت، فتكوين فيروز الشخصي لا يجعلها تميل إلى الثرثرة. وهي تتجنّب اللقاءات الإعلامية التي تسعى إلى اقتفاء أسرار حياتها الخاصة. تجري المقابلات للحديث عن الجديد من مسرحياتها وأفلامها وأغانيها. وعليه، كان الصحافيون يتجنبون طرح بعض الأسئلة عليها من نوع: ما هو لونك المفضل؟ وأكلتك الأثيرة؟ والحكمة التي تؤمنين بها؟ أخذ عليها البعض أنها كانت تدع زوجها عاصي الرحباني يجيب عن بعض الأسئلة المطروحة عليها. لكن عاصي بطبعه، ولاشعورياً، كان الناطق الرسمي في ديوان الأغنية الفيروزية الرحبانية. حتى منصور رحباني، الأديب والشاعر، كان في أحيان كثيرة يحيل السائل إلى أخيه «اسألوا عاصي»!

وأما الضحك فأنا شاهد عليه. رأيت فيروز وسط الجمهور، تشاهد عرض «صرنا صلح» في مطعم «الإيدي كلوب» في بيروت. وكنت أنا مؤلف هذا العرض المسرحي، وهو من لون الشانسونييه الساخر. جاءت برفقة عائلة صديقة. ومن الكواليس حرصت على مراقبة ردود فعلها، وسعدت حين وجدتها تتجاوب مع النكات وتضحك بطلاقة وتصفق. ولاحظت أنها لا تكتفي بالضحك، بل تعلق بما يُضحك الآخرين.

في استراحة بين المشاهد رأيتها تهمس لمن معها ورأيتهم يضحكون. لم أسمع ما قالته، لكنه حتماً قول ساخر. المرة الثانية كانت في حلب، في صيف 1976. كنت أقدم مع فرقة من الفنانين اللبنانيين: أمال عفيش وأحمد الزين وألك خلف وكريم أبو شقرا، عروض الشانسونييه في مطعم الموغامبو. وبعد العرض كان البرنامج يكتمل بدعاً من منتصف الليل بوصلة غنائية يقدمها إيلي شويري. ذات ليلة طلب مني صاحب المطعم أن نغيّر البرنامج فيبدأ بالوصلة الغنائية على أن يقدم عرض الشانسونييه بعد منتصف الليل، لأن شخصية مهمة جداً ستحضر الليلة. رفض الإفصاح عن هوية هذه الشخصية، إلى أن اكتشفنا أنها فيروز. كانت تقدم حفلة غنائية في قلعة حلب، وبناء على طلبها تمّ تغيير البرنامج. كانت تحترم إيلي شويري وتقدّر موهبته، وتعرف أغانيه وسمعته مراراً، لكن كانت لديها الرغبة في الضحك. دوّت عاصفة من التصفيق لدى دخولها القاعة، يرافقها عاصي ومنصور وشقيقتها هدى ثم تولى هو دعوة نصري شمس الدين، فلفّى الدعوة وأطرب الجمهور بموال وبيت عتابا. ثم دوت عاصفة من التصفيق، كان الجمهور يرغب في سماع فيروز. فقلت لهم في الميكروفون «لو تكسرت أياديكم من فرط التصفيق، فهي لن تغني!». أعرفها».

فضحكت فيروز ضحكة كبيرة واستمتع الجمهور بضحكتها. طوال حياتها الفنية لم تغنّ فيروز مرة في مطعم بحضور جمهور يأكل ويشرب بعض الأسماء الكبيرة بدأ الغناء في المطاعم والملاهي ثم أقلع عن هذه العادة بعد نمو شهرته، لكن فيروز من البداية وحتى يومنا هذا لا تغني إلا في مسرح، أو في مكان معدّ للغناء فقط، مثلما غنّت في قلعة بعلبك، أو في بترا أو بصرى الشام أو عند سفح الأهرامات.

إلى ذلك، تسنّى لي أن أكون مقيماً في الفندق ذاته في دمشق، وقد حلّت به فيروز والأخوين رحباني والفرقة الكاملة من المغنيات والمغنين والعازفين والكورس والراقصات والراقصين. أقامت لمدة شهر، لأن الحرب كانت ملتهبة في لبنان صيف 1976، ولم يتمكن الأخوان رحباني من إجراء البروفات في بيروت بسبب الحالة الأمنية، فأجريت في قاعة بالفندق. يومها سعدت بحضور بروفات على أغنية «بحبك يا لبنان يا وطني»، وقد غنتها فيروز يومذاك لأول مرة. وعلمت أن فيروز والأخوين رحباني والفرقة اعتادوا الإقامة في الفندق ذاته منذ سنوات لدى حضورهم إلى العاصمة السورية لتقديم الحفلات.

وكانت فيروز تقيم دائماً في الغرفة ذاتها كل سنة. كانت إدارة الفندق تتهيأ لاستقبالها بحفاوة سنوياً. برغم الإقامة في «فندق الشرق» (أوريان بالاس) ذاته، وكلانا من سكان الطابق الأول، لم التقِ بفيروز إلا لقاءات عابرة لدى مرورها بهو الفندق. كانت قليلة الخروج، تستقبل الصديقات والأصدقاء في جناحها، تغادر الفندق وقت تقديم الحفلات، أو لدى توجهها مع الأخوين لزيارة عائلة صديقة، خصوصاً عائلة المحامي والمثقف نجاة قصاب حسن.

تبلغ التسعين اليوم
(فيسبوك)

الدين عام 2000، بعد أن صحبها بالعزف على البيانو. أضافت فيروز، إذن، أغنية جديدة إلى سجلها من الأغنيات الوطنية عموماً، والجنوبية خصوصاً. تميزت هذه الأغنية عن «إسوارة العروس» بكونها مباشرة وواضحة، في نصها وفي عنوانها.

يرى بعض المهتمين بتاريخ الفن أن لفظة «الجنوب» بدأت تظهر في الغناء اللبناني بعد هزيمة يونيو/حزيران عام 1967، وتحديداً عندما غنى وديع الصافي من كلمات الشاعر أسعد سابا: «الله معك يا بيت صامد بالجنوب». جاءت اللفظة في أغنية لفيروز عام 1977، ضمن مسرحية بترا للأخوين رحباني: «يا زهرة الجنوب.. يا عصفورة البكا..»

يغير فيلمون وهبي مساره، بتصعيد لحني درامي بالغ الإطراب، وبروح شرقية يجلجل فيها صوت فيروز مع مقام البياتي، قبل أن تعود إلى كلمات الاستهلال ولحنها الأول بمقام الصبا ابتداءً، والعجم ختاماً. قدمت فيروز هذه الأغنية لأول مرة عام 1984، فصارت من الأعمال التي تنافس على المرتبة الأولى بين الأغاني المخصصة للجنوب اللبناني. بالطبع، يرجع هذا النجاح إلى جدة الكلمات، وتناسب اللحن، وعظمة الأداء الفيروزي، لكن يمكن أن نضيف إلى هذه العناصر ميل الشاعر إلى أن تكون كلمات الأغنية ذات بعد إنساني، من دون تورط في موقف سياسي مباشر.

في منتصف الثمانينيات، كتب زياد الرحباني كلمات أغنية سماها «نشيد المقاومة اللبنانية»، يقول فيها: «خلصوا الأغاني هني ويغنوا ع الجنوب.. خلصوا القصايد هني ويصقوا ع الجنوب.. ولا الشهدا قلوا ولا الشهدا زادوا.. وإذا واقف جنوب واقف بولاده.. خلصوا القضايا هني ويردوها ع الجنوب.. كسروا المنابر هني ويعدوا ع الجنوب.. اللي عم يحكوا اليوم هو غير اللي ماتوا.. اللي معتر بكل الأرض دايمن هوي ذاتو.. هيدي مش غنية هيدي بس تحية.. وبس».

من الواضح أن أسلوب زياد في رصف هذه الكلمات جاء مختلفاً عن أسلوبه المعتاد فيما كتبه قبلها. لحن الرحباني كلماته، وغناها سامي حواط. لكن بعد نحو 15 عاماً، استطاع زياد أن يقنع والدته بأداء الأغنية ضمن ألبومها الشهير الذي ضم أغنيات حفل بيت

كان الشوام المقيمون في مصر يرددون أغانيها في الستينيات

كان عاصي الناطق الرسمي في ديوان الأغنية الفيروزية

مثلت فيروز رمزاً للوحدة في مجتمع ينقسم حول كل شيء

تبدو فيروز محملة بفائض من المشاعر تجاه وطنها

سجلّ لذكريات شعب بأكمله

هيثم ابوزيد

يأتي عيد ميلاد فيروز التسعون في ظرف لا يستطيع معه لبنان أن يقدم احتفاء لائقاً بأيقونته الكبرى، و«سفيرته إلى النجوم». عدوان الاحتلال الإسرائيلي على لبنان، وعلى الجنوب خصوصاً، وانشغال المجتمع بأخبار الحرب ومشاهد الدمار ونزوح الأسر، يجعل من أي حديث عن الغناء ونجومه ترفاً لا يملكه الشعب المنهك قبل اشتعال الحرب، وبعده.

لكن فيروز عند اللبنانيين لم تكن يوماً مجرد مطربة تمتلك صوتاً ساحراً لا نظير له، وإنما كانت دوماً العنوان الأكبر للوجدان اللبناني، والذاكرة اللبنانية، والتميز في الحب والحرب والسلم والشدة والرخاء.. في الصيف والشتاء، في البيت والضيعة، في السهل والجبل والشوارع. اسم فيروز يعني رحلة فنية بدأت قبل سبعين عاماً، كان صوتها، بل وشخصها، أحد أكبر مصادر قدرة لبنان وشعبها على البقاء والاستمرار، وأيضاً مثلت فيروز بصوتها وشخصها رمزاً للوحدة، في مجتمع ينقسم حول كل شيء، ويختلف حول كل شيء، إلا فيروز وصوتها. غنت جارة القمر لكثير من البلدان والعواصم والمدن العربية، يحبها المصريون وهي تغني: «مصر عادت شمسك الذهب»، أو وهي تغرد: «شط إسكندرية يا شط الهوى»، ويهيم به السوريون وهي تشدو «يا شام عاد الصيف متدا»، أو «أحب دمشق»، ويعشقها الأردنيون وهي تترنم: «أردن أرض العزم» أو «عمّان في القلب»، ويهيم بها العراقيون وهي تنادي: «بغداد والشعراء والصور»، وملهماً ومؤثراً. وفي الظروف العصيبة الحالية، يعيش اللبنانيون على هذا الإرث الفني الكبير، ويستدعونه ليعينهم على الصمود وتجاوز المحنة. كان لبنان حاضراً في غناء فيروز، وكان اهتمامها بالجنوب لافتاً، وصالحاً للاستدعاء في عيد ميلادها التسعين.

تبدو فيروز محملة بفائض من المشاعر تجاه وطنها، فحاولت دائماً أن تعبر عنها بأغنيات مختلفة. ويمكن بمنظور جغرافي تقسيم أغنيات فيروز الوطنية إلى ثلاثة أقسام: الأول؛ الغناء للبنان، لبنان كله، باعتباره الوطن الجامع، أو لبنان الدولة، مثل: «بحبك يا لبنان» أو «ردني إلى لبنان» أو «وطني يا جبل الغيم الأزرق»، أو «لبنان يا أخضر يا حلو». والثاني؛ الغناء لمدينة لبنانية، مثل العاصمة بيروت، التي شدت لها فيروز بأغنية: «لبيروت من قلبي سلام»، أو بعلبك، التي غنت لها: «أنا شمعة على ترابك»، والثالث الغناء لجهة أو منطقة بعينها، وفي مقدمة هذا القسم، بأتي الغناء للجنوب، الذي أولته فيروز اهتماماً كبيراً، تجلى في تعدد الأعمال، وتوزعها على فترة زمنية طويلة، واستمرارها رغم تغير المؤلف أو الملحن.

«إسوارة العروس مشغولة بالذهب»، مطلع نص كتبه جوزف حرب (الجنوبي) ولحنه فيلمون وهبي، وغنته فيروز، فكانت واحدة من أشهر أغنيات الجنوب. وكعادة حرب في خلق صورة جديدة حية، وطريقة في جذب الانتباه ببراعة الاستهلال كما يقول البلاغيون، جاء مطلع الأغنية لافتاً، فالشطرة الأولى لا تنبئ عن موضوع النص، ولم تكن إلا تمهيداً لا يستبين إلا بالشطرة الثانية التي تدخل المستمع في صلب الموضوع، وأيضاً تتحول إلى ثيمة متكرّرة في نهاية كل مقطع. تقول الكلمات: «إسوارة العروس مشغولة بالذهب.. وأنت مشغول بقلوب يا تراب الجنوب.. رسايل الغياب مكتوبة بالسهر.. وأنت بالعز مكتوب يا تراب الجنوب.. وبتوقع حروب و بتنطفي حروب.. وبتشتك حبيبي يا تراب الجنوب.. اللي حامل ع كتافو زيتون وسنابل.. قلعة بحر صور.. صخرة جبل عامل.. اللي حامل ورّاق شعرا وعشاق.. وشو ما إجا شعوب.. وشو ما راح شعوب.. كلن راح بيفلو وبيبقى الجنوب». يقدّم فيلمون وهبي لحناً يجمع بين الأناقة اللائقة بفيروز، وبين مسحة شعبية تتناسب مع «الحالة الجنوبية»، تُسهّل على المستمع حفظ الأغنية وترديدها. مثلاً، فإن مقدمة الأغنية جاءت على مقام العجم، لكن بعد جملتين قصيرتين يتحول اللحن إلى مقام الصبا، من دون إفراط في استخراج مخزون الحزن الكامن فيه، ثم يرجع اللحن إلى العجم، لكن يبدأ الغناء من مقام الصبا في شجن واضح، مع حرص على الابتعاد عن منطقة الانتحاب التي يختزنها هذا المقام، ثم يراوح اللحن بين الصبا والعجم، وعليه يكون الاستقرار وإقفال المقطع الأول.

في القسم الأخير، يواصل جوزف حرب تقديم صوره الطازجة: «لما بغني اسمك بشوف صوتي غلي.. إيدي صارت غيمة وجبيني علي.. الشمس بتطلع سودا.. وبيبيس الموج.. إذا بفكر إنو ترابك مش إلي.. ويا شعب الشعوب.. الأقوى من الحروب.. بتبقى إذا بيبقى يا شعب الجنوب».

في بيت الدين 31 يوليو 2001 (رمزي حيدر / فرانس برس)